المحاضرة الثامنة

النظام (النسق) الطبي Medical System

تنشئ جميع المجتمعات البشرية في الاستجابة للأمراض والمرض، أنظمة طبية من نوع أو آخر. تتكون جميع النظم الطبية من معتقدات وممارسات موجهة بوعي لتعزيز الصحة والتخفيف من حدة المرض. لا يتم تمييز الطب في مجتمعات ما قبل الصناعة البسيطة بشكل واضح عن المؤسسات الاجتماعية الأخرى مثل الدين والسياسة. يظهر واقع هذا في الشامان *shaman*، وهو ممارس سحري وديني يحاول الاتصال بالعالم الخارق عند التعامل مع مشاكل جماعته. بالإضافة إلى البحث عن أشياء مفقودة أو أنشطة ذات صلة، يكرس الشامان الكثير من اهتمامه للشفاء أو العلاج. عند علاج ضحية السحر، يقوم الشامان الموجود بين جيفارو Jivaro ، وهو مجتمع قروي بستاني في منطقة الأمازون الأكوادورية، بامتصاص السهام السحرية من جسد المريض في منطقة مظلمة من المنزل، في الليل لأنه يُعتقد أن هذه هي المرة الوحيدة التي تمكنه تفسير الرؤى التي يسببها الدواء والتي تكشف عن حقيقة خارقة للطبيعة، يتقيأ الشامان المعالج الجسم الدخيل او المتطفل، ويعرضه على المريض وعائلته، ويضعه في وعاء صغير، ثم يلقي به في الهواء لاحقًا، وفي ذلك الوقت يُعتقد أنه يعود إلى الشامان الساحر الذي كان في الأصل أرسلها إلى المريض[1].

على الرغم من أن الأطباء في المجتمعات الصناعية غالبًا ما يزعمون أنهم يمارسون شكلاً من أشكال الطب يختلف عن الدين والسياسة، إلا أن مساعيهم في الواقع تتشابك بشكل معقد مع مجالات الحياة الاجتماعية هذه. يتحدى الاستاذ هوراس مينر (Horace Miner) النزعة العرقية

[1] Harner, Michael. 1968. *The Jivaro.* Berkeley: University of California Press.

لأمريكا الشمالية في تحليله الكلاسيكي لطقوس الجسد بين الناصريما[1] Nacirema، والتي أعيد إنتاجها في العديد من الكتب الأنثروبولوجية التمهيدية، من خلال إظهار أن عاداتنا ليست أقل غرابة من تلك الموجودة في مجتمعات ما قبل الثورة الصناعية البسيطة. تقضي هذه الجماعة جزءًا كبيرًا من الأعمال في نشاط طقسي. ينصب تركيز هذا النشاط على جسم الإنسان، الذي يلوح في الأفق مظهره وصحته باعتباره مصدر قلق مهيمن في روح الناس. في حين أن هذا الاهتمام ليس غريباً بالتأكيد، إلا أن جوانبه الاحتفالية والفلسفة المرتبطة به فريدة من نوعها. يبدو أن الاعتقاد الأساسي الكامن وراء النظام بأكمله هو أن جسم الإنسان قبيح وأن ميله الطبيعي هو الوهن والمرض. مسجونًا في مثل هذا الجسد، أمل الإنسان الوحيد هو تجنب هذه الخصائص من خلال استخدام التأثيرات القوية للطقوس والاحتفالات. يحتوي كل منزل على ضريح (shrine) او مزار واحد أو أكثر مخصص لهذا الغرض. وفي الواقع، أن لكل أسرة ضريح واحد على الأقل، وإن الطقوس المرتبطة به ليست احتفالات عائلية ولكنها خاصة وسرية. النقطة المحورية في الضريح هي صندوق أو صندوق مدمج في الحائط. في هذا الصندوق، يتم الاحتفاظ بالعديد من السحر والجرع السحرية التي بدونها لا يعتقد أي مواطن أنه يمكن أن يعيش. يتم تأمين هذه الاستعدادات من مجموعة متنوعة من الممارسين المتخصصين. أقوى هؤلاء هم رجال الطب، الذين يجب أن تكافأ مساعدتهم بهدايا كبيرة. ومع ذلك، فإن رجال الطب لا يقدمون الجرعات العلاجية لعملائهم، ولكن يقررون ما هي المكونات التي يجب أن تكون ثم يكتبونها بلغة قديمة وسرية. هذه الكتابة مفهومة فقط من قبل رجال الطب، ولا يتم التخلص من السحر بعد أن يؤدي غرضه، ولكن يتم وضعه في صندوق السحر الخاص بالضريح المنزلي. نظرًا لأن هذه المواد السحرية مخصصة لبعض العلل، وأن الأمراض الحقيقية أو المتخيلة للناس كثيرة، فإن صندوق السحر عادة ما يكون ممتلئًا كليا. الحزم السحرية كثيرة لدرجة أن الناس ينسون ماهية أغراضهم

[1] هم مجموعة من أمريكا الشمالية تعيش في المنطقة الواقعة بين كندا والمكسيك، لا يُعرف سوى القليل عن أصلهم، على الرغم من أن التقاليد تنص على أنهم من الشرق.

ويخشون استخدامها مرة أخرى. يدخل كل يوم كل فرد من أفراد الأسرة، على التوالي، غرفة الضريح، يحني رأسه أمام صندوق السحر، يمزج أنواعًا مختلفة من الماء المقدس، ويواصل طقوس الوضوء القصيرة. يتم تأمين المياه المقدسة من معبد الماء للمجتمع، حيث يقوم الكهنة بإجراء احتفالات متقنة لجعل السائل نقيًا بشكل طقسي. في التسلسل الهرمي للممارسين السحريين، وأقل من رجال الطب في المكانة، يوجد متخصصون يُترجم تسميتهم على أفضل وجه "رجال الفم المقدسة". لدى الناصري رعب مرضي تقريبًا وسحر بالفم، ويعتقد أن حالته لها تأثير خارق على جميع العلاقات الاجتماعية. لولا طقوس الفم، فإنهم يعتقدون أن أسنانهم تتساقط، وتنزف لثتهم، وتتقلص أفواههم، ويهجرهم أصدقاؤهم، ويرفضهم عشاقهم. كما يؤمنون بوجود علاقة قوية بين الخصائص الشفوية والأخلاقية. على سبيل المثال، هناك طقوس وضوء الفم للأطفال من المفترض أن يحسن نسيجهم الأخلاقي. تشمل طقوس الجسم اليومية التي يؤديها الجميع طقوس الفم. على الرغم من حقيقة أن هؤلاء الأشخاص حريصون جدًا على العناية بالفم، فإن هذه الطقوس تنطوي على ممارسة معقدة. تتكون الطقوس من إدخال حزمة صغيرة من شعر الخنزير في الفم، إلى جانب بعض المساحيق السحرية، ثم تحريك المبضع في تشكيل تسلسلي المقرونة بالإيماءات. بالإضافة إلى طقوس الفم الخاصة، يبحث الناس عن رجل الفم المقدس مرة أو مرتين في السنة. هؤلاء الممارسون لديهم مجموعة رائعة من المعدات (paraphernalia)، تتكون من مجموعة متنوعة من المثاقب، والمخرز، والمجسات، والمضخات. واستخدام هذه الأشياء لطرد الأرواح الشريرة من الفم. يقوم رجل الفم المقدس بفتح الفم، وباستخدام الأدوات المذكورة أعلاه، يقوم بتوسيع أي ثقوب قد يكون سببها تسوس في الأسنان. يتم وضع المواد السحرية في هذه الثقوب. إذا لم يكن هناك ثقوب تحدث بشكل طبيعي في الأسنان، يتم اقتلاع أجزاء كبيرة من سن واحد أو أكثر بحيث يمكن تطبيق المادة الفوق طبيعة. من وجهة نظر الناصري، الغرض من هذه الاجراءات هو توقيف التفسد واجتذاب الأصدقاء. يتجلى الطابع المقدس والتقليدي للغاية للطقوس في حقيقة

أن السكان الأصليين يعودون إلى رجال الفم المقدس عامًا بعد عام، على الرغم من حقيقة أن أسنانهم تستمر في التسوس[1].

يستخدم علماء الأنثروبولوجيا الطبية وغيرهم من علماء الاجتماع الطبيين مصطلح الطب بشكل روتيني كأداة إرشادية أو تحليلية، وأن مفهوم الطب كنظام محدود هو بناء ثقافي. في الواقع، يرتبط الطب بترتيبات ثقافية أخرى، بما في ذلك القرابة والنظام السياسي والاقتصاد والدين، وكما لوحظ في فوستر وأندرسون، يتبنى كل نظام طبي نظام نظرية المرض ونظام الرعاية الصحية. يتضمن نظام نظرية المرض مفاهيم الصحة وأسباب المرض أو المرض. يميز فوستر وأندرسون بين (١) أنظمة طبية شخصية و (٢) أنظمة طبية طبيعية. ينظر الأول إلى المرض على أنه ناتج عن فعل "العامل الحسي الذي قد يكون كائنًا خارقًا (إلها)، أو كائنًا غير بشري (مثل شبح، أو سلف، أو روح شريرة)، أو إنسان (ساحرة أو ساحر)[2]. وتنظر الثانية إلى المرض على أنه ناجم عن اختلال توازن بعض العناصر غير الحية في الجسم، (كما في الطب الصيني بين اليين واليانغ) حيث أنها تقسم العمليات الحيوية والفسيولوجية في جسم الإنسان على أساس أن كل منها مكون من جزأين متضادين ومكملين لبعضهما البعض أيضا، فهي تقسم العمليات الحيوية على سبيل المثال إلى: البرد والحرارة، الرطوبة والجفاف..الخ. قد يتم مساعدة المعالج من قبل مساعدين مختلفين وفي حالة المجتمعات المعقدة قد يعمل في هيكل بيروقراطي متقن، مثل عيادة أو منظمة صيانة صحية أو مستشفى. من المحتمل جدًا أن يتم دعم المريض من خلال ما يشير إليه (Janzen)بإسم" مجموعة إدارة العلاج" –وهي مجموعة من الأقارب والأصدقاء والمعارف وأفراد المجتمع الذين يتشاورون مع المعالج وممثلي بناء الدعم الخاص به في عملية الشفاء.

---

[1] Miner, Horace. 1979. “Body Ritual among the Nacirema.” In *Culture, Curers and Contagion*, ed. Norman Klein, 9–14. Novato, CA: Chandler and Sharp Publishers.

[2] Foster, George M., and Barbara Gallatin Anderson. 1978. *Medical Anthropology.* New York: John Wiley and Sons.